النظر العقلي في الإمامية

عبد افقادر فيدوح ـ جامعة البحرين

لقد كان لغريزة الشعور الديني دورها الفعال في تكوين النظر العقلي إلى معرفة مبدأ الكون ، ومعاده لما فيه من تساوق وتناسق في الوجود بما هو موجود ، وتشخيص خصوصيته عبر موازين العقل و الشرع، و إذا كان ذلك كذلك ، فإن الفلسفة تعين الشعور الديني عن طريق إثبات المعارف، اللازم حصولها بغرض الإسهام في اكتناه الحقائق الممكنة ، أو ما يمكن إدراجه ضمن معرفة بعض خواص الأشياء و لوازمها.

و على الرغم من المزايا التي تتميز بها القوة المتفكرة للإنسان فإنها تبقى في غاية الإحاطة ، ذلك أن مهمة هذه القوة المتفكرة هي تجريد الإدراكات الحسية ليس إلا، ومن ثمة تصبح قاصرة عن الإحاطة بأحدية الذات الإلهية (**قل هو الله أحد**) وبراءة الذات العلية و تقدسها عن الأجزاء (**ليس كمثله شيء**).

و ليس لنصيب العقل في مقتضى الوجدان من تنزيه الذات الإلهية إلا ما يرى فيه الإنسان من صنعه تعالى، بوصف صناعته مرآة يرى الإنسان عبرها واجب الوجود من خلال قدرته العقلية ، وفي ذلك برهان على دلائل التوحيد ومعنى العبودية من حيث هو واحد في ألوهيته ، واحد في صفات كماله تعالى عن لوازم الإمكان ومستلزمات الحدوث ، وهو ما جاء في قوله تعالى توضيحا لمرحلة الرشد العقلي لخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام : "**وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جنى عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجّهت وجهي للذي فطر السمواتِ والأرضَ حنيفا و ما أنا من المشركين**"الأنعام(75 79).

لقد كان النظر الفلسفي في عالم الخلق وطرق معرفة وجود الله قائما على سبل عديدة لمصادر المعرفة اليقينية (**طريق الحق**)، يمكن النظر إليها عبر إحدى هذه الطرق، أو كلها، أو بعضها :

أ الطريق المباشر و هو لون من الإدراكات الحسية الباطنية التي تحصل بنحو الشهود.

ب طريق معرفته بالواسطة وذلك باتخاذ الآثار والمخلوقات التي يسميها القرآن الكريم "**الآيات**" واسطة في الإثبات.

ج الطريق العقلي الفلسفي المحض، هو الطريق الذي يسلك بواسطة قراءة كلية الوجود، وفي هذا الطريق لون من الاستدلال[1].

إن الحديث عن معرفة الله ـ سواء من حيث كونه خالقا ، أي القائم بفعل الخلق و توابعه، أم بمعنى اللائق للعبادة ـ حديث متشعب. والبراهين الفلسفية نظير براهين علم التوحيد كلها تحاول إثبات الذات الإلهية المقدسة بالنظر العقلي لمفهوم واجب الوجود* عبر قياسات مختلفة ، ومراتب متميزة فمنها ما يوقع اليقين وهو البرهاني ، ومنها ما يوقع شبه اليقين، إما القياس الجدلي وإما القياس السوفسطائي، ومنها ما يقنع فيوقع ظنا غالبا وهو القياس الخطابي ، وأما القياس الشعري فلا يوقع تصديقا ، ولكن يوقع تخيلا محركا للنفس إلى انقباض وانبساط بالمحاكاة لأمور جميلة[1]، وليس أحد هذه البراهين متداخلا مع الآخر ولا مناقضا له ، بقدر ما هي مكملة بعضها لبعض كل بحسب ما تراه مناسبا لصفات الخلق التي لا تخلو من واجب وجود : "**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**" (سورة الملك 3).

[1] ينظر : مرتضى المطهري : شرح المنظومة، ترجمة عمار أبو رغيف، ط 1، 1417 هـ، مؤسسة أم القرى، ص 358.

*الذي يكون وجوده ضروريا و يرفض الزوال إطلاقا.

[1]عاطف العراقي : ثورة العقل في الفلسفة العربية، دار المعارف، ط 6، 1993، ص 71.

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان بيان علة الاختلاف في موضوع الألوهية واضحا لدى علماء الكلام ، بخاصة من أهل المذاهب، فتعددت أقوالهم و اضطربت آراؤهم ، وتوزعت أفكارهم سواء ما كان من المعتزلة (**اعتماد العقل و النقل معا**) ونظير ذلك عند الماتريدية حيث تكون معرفة العقل مدركة بالعقل ابتداء ، أو وجوب معرفة الله بالشرع كما هو الشأن عند المذهب الأشعري خلافا للمتصوفة ـ بمن فيهم العرفانيون ـ الذين اتخذوا الوجدان سبيلا لهم لمعرفة الذات الإلهية ، أما الإسماعيلية فقد انقسموا إلى فريقين في موضوع معرفة الله ، فرقة ترى أن العقل قاصر أصلا على معرفة الله ، و أخرى تراه ذا قدرة على ذلك ، و لكنه غير مستقل بهذه المعرفة ، بل لا بد من إمام يرشده إلى وجود الأدلة. فعقل الإمام بالنسبة إلى عقول الناس كالشمس بالنسبة إلى الأبصار، وأصحاب هذه الفرقة يرون أن الإنسان قادر على اكتساب المعرفة إذا طلبها ممن يمتلكها وهو الإمام المعصوم، المعلم، الوحيد القادر على إعطاء المعرفة طالبها، ومن عرف الإمام فقد عرف الله ، إذ إن معرفته تعالى لا تكون إلا عن طريق الإمام. قال المعز : "من عرفنا فقد عرف الله ، ومن جهلنا فقد جهله ، نحن الدالون بحكمته عليه"[1].

إن من يتتبع آراء الغلاة من الإسماعليين المتظاهرين بالإسلام ويمعن النظر في تفاصيلها يدرك مدى تقديسهم الإمام ،به يفض الحق ، و ذلك بعدما نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريتهم(عليهم السلام) إلى الألوهية و النبوة ، ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد ، وخرجوا عن القصد وهم ضلال كفار حكم فيهم أمير المؤمنين (ع) بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة عليهم بالأكفار والخروج عن الإسلام[2]. وبذلك يكون الإمام في نظر الغلاة أقرب المخلوقات إلى تقريبهم بالخالق ، وقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك من حيث إن الأئمة هم السبب الأعظم في خلق العالم و إيجاده ، لأنهم أصل كل خير ومعدنه و أسسه، و ليس غريبا من الإسماعيلين أن يعتبروا الإمامة بمثابة المراد من إيجاد العالم، وأن الأئمة علة الموجودات وأقرب الخلق إلى ذي الجلال، وأنه تعالى أتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، وبذلك علت رتبهم إلى مرتبة النبوة ، وقد وردت عنهم روايات عديدة تبين منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى وقربهم منه، وأعلى

---

1 ينظر عبد المجيد بن حمدة : المدارس الكلامية بإفريقيا، مطبعة دار العرب، ط1، 1986، 227.

2 ينظر، عبد الله سلوم السامرائي : الغلو و الفرق الغالية ، ص ،73.

رتبة حتى من الملائكة ، ومعنى ذلك أن الإمام في منظورهم هو شبيه العقل الأول لأن المخلوقات بإسرها خلقت من فاضل أنوارهم ، لأنهم شمس الوجود، و إلى هذا أشار أحدهم في دعائه : اللهم شيعتنا منا خلقوا من فاضل طينتنا وعجنوا بماء ولايتنا"، كما ذُكر عنهم : خلقنا الله من نور عظمته، وخلق أرواح شيعتنا من أبداننا وأبدانهم من طينته مخزونه مكنونة. وآراؤهم في هذا الشأن كثيرة يعجز المرء حصرها، يمكن الرجوع إليها في متون أمهات الكتب الشيعية التي تثبت على أنهم علة غائية للموجودات.

لقد وجد الغلاة من الشيعة ـ الإسماعلية ـ في قضية الإمامة فرصة للتعبير عن مبادئهم الضالة للوقوف في وجه السلطة ، فاشتد بذلك الصراع ، واحتد النزاع ، بغرض تحقيق أهدافهم ، مستغلين آلية التأويل لمواجهة الحركة الإسلامية الجديدة ، فجاءت محاولتهم بوصفها أسلوبا معارضا، تركز على التفسير اللغوي بشكل يتعارض مع تأويل النص وبيان معناه، بصرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك على حد رأي ابن تيمية. وفي مقابل هذا كان التأويل المرجح بغير برهان قاطع، والذي غالبا ما يقع في تأويل الأصول والعقائد وتفسير آيات من القرآن الكريم، يخرجها من مدلولها اللغوي إلى تأييد العقيدة هي إحياء لتعاليم أديان قديمة عاشت على أرض العراق ، وقد صاغوها صياغة خاصة ، فكانت هذه الطائفة، من غلاة الشيعة، من أخطر الحركات التي شاهدها القرن الثاني[1]، فكان من شأن ذلك إرجاع النص المقدس وتفسيره بحسب الأهواء، و انقياده لآرائهم الضالة ، وصرفه عن ظاهره ، بدلا من أن يكون مصدرا لهذه العقائد ، حاكما عليها ، وهو ما لم يقره الشرع . من هنا جاء مصدر النزاع حين حاولت هذه الطائفة إخضاع النص القرآني للرؤى المذهبية والمشاجرات الكلامية بخاصة في مسألة الإمامة التي كانت أكثر الأسباب اختلافا ، وأشدها انقساما ، كما أشار إلى ذلك الشهرستاني في أثناء حديثه عن المنازعات العميقة بين المذاهب في شأن الإمامة بقوله : "وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على

---

[1] عبد الله سلّوم السامرائ : الغلو و الفرق الغالية، 148.

الإمامة في كل زمان"[1]، حيث وجدوا فيها مجالا واسعا لتحريف النص ومجافاتها لروح الإسلام ، حتى ذهب بهم الرأي إلى إسباغ الصفات على الأئمة ، لذلك اعتبرت الإمامة الدعامة الأولى للمذهب الشيعي و جوهر العقيدة عند طائفة الغلاة منهم ، وأساس عقيدتهم وعلى هذا تكون هذه الطائفة قد تجاوزت حدود العقل والإيمان في القول بألوهية الأئمـة[2]، ومن ثمة تكون عملية نقل الألوهية إلى الأئمة بهذه الصورة إنما هي خطة مرسومة لهدم مبدأ التوحيد ، الركن الأول والرئيس في العقيدة الإسلاميـة، وأن هدمه يجر معه هدم بقية المبادئ الأخرى ، وفي هذا يقول النوبختي : "اتفقوا على نفي الربوبية عن الجليل الخالق تبارك وتعالى عن ذلك علوا كبيرا وإثباتها في بدن مخلوق ، ويذهبون إلى أن البدن مسكن لله ، وأن الله نور وروح ينتقل في هذه الأبدان"[3]، و هو ما نفته عقائد الإمامة الإثني عشرية و حاربته بضراوة من حيث لا تجوز عبادة غير الله بوجـه مـن الوجوه ، وكذا إشراكه في العبادة في أي نوع من أنواع العبادة ، واجبة أو غير واجبة ... ومن أشرك في العبادة غيره فهو مشرك كمن يرائي في عبادته و يتقرب إلى غير الله ، و حكمه حكم من يعبد الأصنام والأوثان لا فرق بينهما[1].

صحيح أن بعض الشيعة يعتبرون الأئمة علة الموجودات ، أول من يصل إليهم الفيض الإلهي . غير أن طائفة الإسماعيلية تذهب إلى أبعد من ذلك في كونهم العلة الفاعلة لهذه الموجودات ، حين أذن لهم العلي القدير ووكلهم ، بعدما أوجدهم و فوض إليهم الأمر، بمعنى أنه أعطاهم القوة وخلا سبيلهم ، وقال افعلوا ما شئتم ، مثل الوكيل من جانب الموكل ، أو جعلهم شركاء له في الخلق والرزق ، وفي ذلك قمة الكفر والإلحاد، وهو ما تعارضه عقائد الإمامية الإثني عشرية التي ترفض بعض هـذه المزاعـم، وتقر ببعضها الآخر ـ الأخف منه ـ نحو ما ورد عن الصادق قوله في الرد على زعم المتطرفين : لعن الله الغلاة ، فقد صغروا عظمة الله ، بل الذي نريد أنهم (يقصد الأئمة عليهم السلام) هم السبب الأعظم الذي تنتهي إليه الأسباب ، والله تعالى هو الذي جعلهم كذلك ، كما دلت عليه

---

1 الملل و النحل، 21/1 22.

2 ينظر : ابن خلدون، المقدمة، 198.

3 عبد الله سلوم السامرائي : الغلو و الفرق الغالية، ص 76

1 السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني : عقائد الإمامية الإثني عشرية، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط2، 1992، ج3، 193.

النصوص، لأنه سبحانه أبى أن يجري الأشياء إلا بأسبابها، وهم سبقوا كل المخلوقات لأنه تعالى بهم فتح الوجود[2].

و من أجل ذلك وجب على الله في نظرهم خلق الإمام و تمكينه التصرف حتى يكون وسيطا بين ذات الحق و ذات الخلق، و من هنا جاءت قداسة الأئمة في نظر الشيعة الغلاة حتى وصل بهم الأمر إلى القول بأنه بعدم الاعتقاد بالإمامة يخرج المرء عن كونه مسلما ، ومن ثمة كان نصبه واجبا على الله بالنص ، فاشتط بعض الفرق المتفرعة عن الشيعة في طريقة نصب الإمام ، فبينما ذهبت الإمامية ، خاصة ، إلى أن الإمام يجب أن يكون منصوصا عليه ، قالت العباسية أن الطريق إلى تعيين الإمام النص أو الميراث. وقالت الزيدية تعيين الإمام بالنص أو الدعوة إلى نفسه ، وتكاد بقية الفرق تتفق على أن تعيينه وارد بالنص من منظور أن الإمام يجب أن يكون معصوما ، والعصمة أمر خفي لا يعلمها إلا الله تعالى، لذلك يجب أن يكون نصبه من قبله تعالى ، لأنه العالم بالشرط دون غيره ،لأن الله أتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين[1]، ومما يدل على مراتب الأئمة واتصافهم بصفات الكمال والقداسة ما ورد في إحدى رواياتهم وقصصهم من أحد متشيعيهم الغاليين قوله : ثم أعلم أني لما تتبعت الأخيار ظهر لي أنه سبحانه أول ما فتح الوجود بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو السراج الوهاج ، ثم خلق من ذلك السراج نور علي عليه السلام ، ثم خلق الحسن والحسين ، ثم خلق من الحسين القائم، ثم الأئمة الثمانية خلقهم من نوره ، ثم خلق فاطمة بعدهم ، وهؤلاء الأربعة عشر قصبة الياقوت ، وهم في هذا العالم كشخص واحد قلبه محمد ، وصدره علي ، ودماغه الأئمة ، وجده فاطمة وليس بينهم علية ولا معلولية بل ترتب موجود اللاحق مترتب على وجود السابق[2]. لذلك يزعمون إن صلاتهم بذات الحق أقرب بحكم مكانها في مقام القطبية.

---

2 ينظر الشيخ محمد الشيخ حسين، مفاتيح الأنوار، ص 78.

1 ينظر : الخواجة (نصر الدين محمد بن الحسن الطوسي) كشف المراد، ص 343.

2 الشيخ محمد الشيخ حسن : مفاتيح الأنوار، 84.

ولما كان الإمام عندهم بمنزلة النبوة وخلافة الله وخلافة الرسول، فقد أوجبوا فيه الاعتقاد بالتفويض* ، وهم في ذلك إنما يشركون الإمام مع الله ،ويجعلونه ندا له سبحانه وتعالى ،وهو ما خالفه الشرع في قوله تعالى : " **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله** " (البقرة 165) وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام ، من زعم أن الله فوض أمر الخلق و الرزق إلى حُجَجِه فقد قال بالتفويض ، والقائل بالتفويض مشرك ، وقد نفت عقيدة الإمامية الاثني عشرية مثل هذه البدع والأهواء المضلة وأثبتوا أن لا فعل مع فعل الله ، ولا مؤثر في الوجود سواه ، ولعموم قدرته أما غير هذا فيستلزم الشرك بالله ، وهذا محال ، ومن هنا جاء شعار الإمامية أن **"لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين"** وفي هذا اعتقاد بتوحيد الله من جميع الجهات عند الإمامية الذين أنكروا على الغلاة من شيعتهم إشراك الله في العبادة ، كما أنكروا عليهم ما نسبوه إلى الإمام علي عليه السلام ، والأئمة من ذريته من الصفات الإلهية و النبوة كما ورد عن الشيخ المفيد : و يكفي في علامة الغلو نفي القائل به عن الأئمة : سمات الحدوث وحكمه لهم بالإلهية و القدم ، إذ قالوا بما يقتضي ذلك من خلق أعيان الأجسام واختراع الجواهر(1).

إن وضع الأئمة في غير مراتبهم الإنسانية من شيعة الباطنية يخرجها عن دائرة الإسلام ، حينما أصروا على جعل الإمام وسيطا للوصول إلى ذات الحق باستعمال ستار التأويل ، وعن طريق التأويل والاستفادة من نظرية الفيض الأفلاطونية قالوا بنظرية العقل الكلي ، وما يتفرع عنها من أفكار تؤدي إلى ما يؤدي إليه القول بالحلول من انتقال الألوهية إلى أكثر من واحد ، وبهذا الصدد يقول **جولد تسهير**: فوضعوا بذلك نظاما فلسفيا هو صورة تاريخية منعكسة لنظرية الفيض الكوني التي وضحتها هذه الفلسفة ... و كل مظهر من هذه المظاهر الدورية للعقل الكلي يبدو في وقته حتى يكمل إنجاز العمل الذي أداه المظهر السابق ، أي أن الوحي الإلهي لا ينقطع ولا ينتهي في فترة زمنية معينة من فترات الخليقة(1).

---

*هو تفويض الله أمور العالم و تدبيرها (من الخلق) أي من ملائكته و صالحي عباده و قد يرد في أمرين :
أ/ تفويض الله تدبير العالم إلى خيار عباده من الملائكة و الأنبياء و الأولياء و يسمى بالتفويض التكويني.
ب/ تفويض الشؤون الإلهية إلى عباده كالتقنين و التشريع و المغفرة و الشفاعة مما يعد من شؤونه سبحانه و يسمى بالتفويض التشريعي.أنظر جعفر السبحاني : معالم التوحيد في القرآن الكريم، دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1984، ص 416.

[1] ينظر تصحيح الاعتقاد، ص63 66 عن جعفر السبحاني، معالم التوحيد في القرآن الكريم، 422.

[1] ينظر جولد سهير: العقيدة و الشريعة، عن عبد الله [illegible] رائي، الغلو و الفرق ص ..109

و لعل أخطر مبادئ الباطنية التي اعتمدتها وعملت في إظهارها بشكل علني هي:

أ ـ الحلول : *

وقد جاءت فكرة الحلول لتدل على التجانس بين الوجود الإنساني (**الناسوت**) والوجود الإلهي (**اللاهوت**) ، وتؤكد الفرق الغالية انتقال الإلهية إلى الأنبياء والأئمة، كما قالت الإسماعيلية : "وكان روح الله في آدم ، ثم في شيت ، ثم في الأنبياء والأئمة حتى انتهت إلى علي وأولاده"[2]، مستشهدين في ذلك بقوله تعالى : **"فإذا سوّيتُه ونفخت فيه من روحي**"(الحجر 29). وذهبت فرقة الإسماعيلية إلى وقف الحلول على الأئمة باعتبارهم آلهة، فكانوا يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول ، ومنهم من يقول أن كمال الإمام لا يكون لغيره ، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال[1].

ب ـ التناسخ◦ :

تعتبر الغلاة من الشيعة أن الأنفس تظل باقية غير فانية ، ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد ، بل ذهبوا إلى إنزال روح الله في صورة المخلوق، كما ورد عنهم من أن الله حل في خمسة أشخاص ، في النبي وفي علـي ، وفي الحسن ، وفي الحسين ، وفي فاطمة ، فهؤلاء آلهة عندهم . "وقالوا لهذه الأشخاص الخمسة التي حل فيها الإله خمسة أضداد . فالأضـداد أبو بكـر وعمر، وعثمان ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص"[2]، وفي هذا قمة الإساءة إلى الإسلام ، وهدم مبدأ عقيدة التوحيد بوصفه الركن الأساس للعقيدة الإسلامية . وقد وضح المجلسي خطورة الاعتقاد بالتناسخ وأهداف الضالين من الغلاة بالاستناد إلى هذا القول الزائف ، معتبرا أن أصحاب التناسخ قد خلوا وراءهم مناهج الدين وزينوا

---

* بمعنى حلول ذات الحق في ذات الخلق أي انتقال روح الله إلى غيره و في هذا قمة الكفر.

2 الشاطبي : الاعتصام، مكتبة الرياض الحديثة، ج 3، 66 67.

1 ابن خلدون : المقدمة، 139

◦ رد الروح إلى بدن غير البدن الأول.

2 ينظر، الأشعر : مقالات الإسلاميين عن : عبد الله سلوم السامرائي : الغلو والفرق الغالية ، 133

لأنفسهم الضلالات وأخرجوا أنفسهم من الشهوات وزعموا أن السماء خاوية ما فيها شيء مما يوصف ، وأن مدير هذا العالم في صورة المخلوقين ، بحجة من روى أن الله عز وجل خلق آدم

على صورته ، وأنه لا جنة ، ولا نار، ولا بعث ، ولا نشور، والقيامة عندهم خروج الروح من قالبه ، وولوجه في قالب آخر، إن كان محسنا في القالب الأول عيد في قالب أفضل منه حسنا في أعلى درجته ، وإن كان مسيئا أو في غير عارف صار في بعض الدواب المتعبة في الدنيا ، أو هوام مشوهة الخلقة ، وليس عليهم صوم ، ولا صلاة ، ولا شيء من العبادة[1].

ج - التشبيه :

لقد بينت صراحة الشريعة الإسلامية نفي معنى الجسمية ولوازمها عن الله عز و جل من حيث لا يشبه شيئا من المخلوقات، وأنه "**خالق كل شيء**"(الأنعام 102) والخلق هنا معناه إيجاد الأشياء على القدر الذي سبق به علمه ، واقتضته مشيئته في حجمها وشكلها وزمانها ومكانها. ففي ذلك أصرح البيان ، لأن كل مقدر مخلوق : فيتضح منه أتم اتضاح أن الخالق الذي ليس هو بمخلوق يتعالى في ذاته عن الحدود والمقادير وتجعل صفاته أن يكون منها ما هو من سمات الحدوث ولوازم الإمكان[21] ، ولأنه سبحانه وتعالى "**فاطر السموات و الأرض**"(الأنعام 14)، " **قد جعلى الله لكل شيء قدرا** " (الطلاق 3) ، أمام كل هذا ، وغيره كثير من الآيات المبرهنة على عدم التشبه بالله ، نجد أقواما من المشبهة والمجسمة يشبهون ذات الحق بذوات المخلوقين ، وليس في هذا ما يوضح إلا كيد الإسلام . وليس في نظر أصحابها إلا ظلمات من الأوهام وهدم مبدأ الألوهية ، ذلك لأن عملية التشبيه تجعل المشبه و المشبه به على مستوى واحد أو على مستويات متقاربة ، ولما كانت ظاهرة التشبيه لا بد أن يكون أحد طرفيها المشبه والمشبه به هو الله جل وعلا، فإن

---

1 محمد باقر المجلسي : بحار الأنوار، دار أحياء التراث العربي، ط 3، ج 2، 235.

2 ينظر : البراهين الساطعة، 219.

في هذا وصفا لله في غير مكانه وجعله عرضة للتشكيل و التغير و التبعيض[1] . أضف إلى ذلك أن كل موجود ـ في نظرهم ـ لا بد له من جهة أخرى تؤكد وجوده . وتنزيه الله عن هذه الجهة الأخرى معناه الحكم بأنه معدوم لا موجود في نظرهم وهو ما يمثل قمة الكفر : "**قالت رسلهم أفي الله شك فاطِر السماواتِ والأرضِ**"(إبراهيم 10) . وعلى الرغم من ذلك فإن غلاة الشيعة يصورون الله في صورة المخلوقات ، ويشبهون معبودهم على صورة ذات أعضاء وأبعاض ، إما روحانية ، وإما جسمانية، و يجوز عليه الانتقال ، والنزول ، والصعود ، والاستقرار، والتمكن...وأجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة، وأن المسلمين المخلصين يعانقونه في الدنيا و الآخرة[2].

لقد بالغ المتشبهة في نسبة صفات لا تليق به عز وجل من الجسمية و لوازمها، وهي بدع تعيدنا إلى عصور الوثنية التي تصور الإله في شتى الصور، وما ذلك في النظر السليم ، ولا في العقل السليم ، في ذات الحق، لأن ما كان صفة له عز وجل لا يكون إلا قديما بقدم ذاته العلية ، ومن هنا يكون كلام المشبهة مبطلا ، وقولهم زائفا، ووصفهم منكرا ، فيما لا يجوز عليه سبحانه وتعالى ما يستلزم الحدوث والإمكان كالصورة والأجزاء والجهة، والمكان ، والحركة ، والانتقال، وكذلك من ادعى حلول روح الإله في ذوات الخلق . كل ذلك اعتقاد فاسد يراد منه طمس معالم الحق وحجب أنوار الشرع.

ونظير ذلك آراء غلاة الشيعة لما لها من شغف عظيم بافتراء الأكاذيب والأقاويل الباطلة كما ذكر البغدادي : "وأول ظهور التشبيه صادر عن أصناف من الروافض و الغلاة"[1]، وهم الباطنية الذين يدعون أن في كتاب الله العزيز باطنا لا يفهمه إلا هم ، وقد ازداد غلوهم في حق الأئمة حتى قربوهم من الصفات الإلهية وأبعدوهم عن الصفات الخلقية ، لذلك نجد الفرق الغالية التي عملت في نطاق فرقة الشيعة عمدت إلى تشبيه الأئمة بالإله من أجل إسقاط مبدأ الإمامة الذي هو ركن مهم من أركان الشيعة الإمامية . فقد ادعت فرقة الخطابية الأئمة أنبياء ، بل الأئمة آلهة ، والحسنان ابنا الله ، وجعفر إله ، وقالت فرقة المنصورية على أساس التشبيه: أن عليا رضي الله عنه هو الكف الساقط من

---

1 عبد الله سلوم السامرائي: الغلو و الفرق الغالية، 139.

2 الشهرستاني : الملل و النحل 173 174.

1 الفرق بين الفرق، 214.

السماء ، وربما قال أبو نصر العجلي الكف الساقط من السماء هو الله تعالى ولم يقف العجلي عند هذا إنما صعد إلى السماء وصور الله سبحانه على الشكل الآتي : "وزغم ... أنه عرج به إلى السماء ورأى معبوده فمسح بيده رأسه . ففي تشبيه الإمام علي رضي الله عنه بالله إساءة له وهدم لإمامته وتصوير الله بأنه أب الحسنين نزولا به عن ألوهيته"[2].

إذا كانت الأئمة عند غلاة الشيعة أقرب إلى الله من غيرهم فلأنهم ـ في نظرهم ـ شمس الوجود ، وكل شيء موجود في الكون هو من فيوضاتهم و نورهم ، وهو السر الذي من أجله أطلق عليهم بالألوهية ، على نحو ما أورده الشهرستاني عن هذه الفرقة الضالة ، إن الله ظهر بصورة أشخاص ، و لما لم يكن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شخص أفضل من علي رضي الله عنه وبعده أولاده المخصوصون وهم خير البرية فظهر الحق بصورتهم ، ونطق بلسانهم ، وأخذ بأيديهم ، معنى هذا أطلقنا الإلهية عليهم[1].

و لعل أغرب ما نختم به عن هذه الفرقة المشبهة من غلاة الشيعة قولهم "محمد وعلي أشبه من الغراب بالغراب فغلط جبريل من علي إلى محمد"[2]، فتجاوزوا بذلك كل أنواع حدود فهم النص الشرعي ، بما في ذلك نفي وحدانيته تعالى ، وهو سبحانه الذي نفى الشريك عن نفسه "**فاعلم أنه لا إله إلا الله**" (محمد19) و "**قل هو الله أحد**" (الإخلاص1) ، إلى غير ذلك من آيات التنزيه من حيث كونه ـ سبحانه و تعالى ـ واجب الوجود ، يثبت وحدانيته بالوحدة الحقة التي يستحيل معها فرض التعدد أو الشرك. أما كونه واجب الوجود تعالى المفيض لوجود ما سواه ـ مثل الأئمة على رأي المتطرفة من غلاة الشيعة بما نسبوه لأئمتهم بخاصة الإمام علي ـ فإن ذلك يعد من باب الافتراء والاعتقاد الباطل عملا بالتأويل البعيد عن الدراية بمنقول ، والفهم المعقول ، وهو السبب في زرع الشك واندلاع نار الفتن بين المسلمين بغلوهم في حق الأئمة بعدما أخرجوهم من الصفات الخلقية و أدرجوهم ضمن الصفات الإلهية ، وفي هذا التشويه لمقصود الشرع ، على الرغم من استنادهم إلى القرآن و السنة إلاّ أن تأويلاتهم لهذه النصوص جاءت من قبيل القول بالرأي الصادر عن الأهواء. فضلوا بذلك وأضلوا ببدعهم الزائفة في ما لا يجب لله تعالى ولا يجوز عليه ،

---

2 ينظر عبد الله سلوم السامرائ : الغلو والفرق الغالية 140. وانظر، الشاطبي : الاعتصام 68، وانظر الشهرستاني : الملل و النحل 378.

1 الملل و النحل، 365 366.

2 الخوازجي : مفاتيح العلوم، 168 169.

منكرين أصول الدين من المنقول الصحيح والمعقول المستقيم ، وإدراك معنى التنزيه الذي أشار إليه الذكر الحكيم : "**سبحان ربك رب العزة عما يصفون**" (الصافات 180).